



تاريخ الاستلام: 2022/11/28. تاريخ القبول: 2023/08/15

ملخص:

تتوقف هذه الورقة البحثية بالدراسة والتحليل كأحد ركائز جيشنا خلال العصر الوسيط، وعناصر هيكلته؛ وهم فرقة الفعلة. وتكمن أهمية دراسة هذه الاشكالية البحثية في كونها تبرز أدوار هذه الفرقة الحربية، ومدى حضورها في مسار النشاط الحربي الذي تضطلع به الجيوش في الفترة والمجال الخاضع للدراسة، وأهميتها العسكرية.

كلمات مفتاحية:

الجيش، تهيئة المسالك، حفر الخنادق، الحصار.

Abstract*

This research paper aims at studying and analyzing one of the pillars of the Moroccan army during the Middle Ages, and the elements of its structure, namely Elfa'la squad. The importance of studying this research problem lies in the fact that it highlights the roles of this military squad, the extent of its presence in the course of the military activity undertaken by the armies in the period and the field under study, and its military importance.

Keywords: army, paving roads, digging trenches, siege.

من مكونات جيوش الحصار: فرقة الفعلة
"دراسة في مستويات التنظيم وطبيعة
الأدوار".

Among the components of the Siege
Armies: Elfa'la squad, "a study in
the levels of organization and the
nature of roles."

البشير بوقاعدة*

جامعة محمد لمين دباغين سطيف2
bougadabachir@yahoo.com

د. حموم خالد

جامعة محمد لمين دباغين سطيف2.
Khaled_dz2011@yahoo.fr

(الجزائر)

المؤلف المرسل: البشير بوقاعدة، الإيميل: bougadabachir@yahoo.com



1. مقدمة:

عُدَّت المؤسسة العسكرية بكل مقوماتها الركيزة الأساسية التي أسندت الدول التي نشأت على بساط الدول والأمم ظهرها إليها في مسعى تثبيت كيائها وتدعيم أركانها، كما مثّلت عمودها الفقري لصدّ الأخطار التي تتهدّد أراضيها، ومعوّلها الفاعل لردّ الأعداء وكبح جماح الطامحين للتوسّع على حساب ممتلكاتها. وهي إلى صف ذلك؛ تعدّ السلاح الكفيل لتحقيق مطامح القيادة السياسية وأهدافها التوسعية المسطّرة على المدى القريب أو البعيد.

من هذا المنطلق، سنحاول في متن هذه الورقة البحثية مذاكرة مقوم من مقومات المؤسسة العسكرية ببلاد المغرب الأوسط (الجزائر) خلال العصر الوسيط؛ ويتعلّق الأمر بفرقة "الفعلة" التي تعدّ من العناصر الهامة في تشكيلة جيوش الحصار. وذلك بهدف معاينة طبيعة مهام هذه الفرقة العسكرية، ومكوناتها ضمن هيكله جيوش الحصار، ومدى حضورها في عمليات الجيوش العسكرية ومخططاتها الحربية. كما نسعى لقياس مدى فاعلية هذه الفرقة في ميادين حروب الحصار وموقعها ضمن معاركها، بالإضافة إلى تحسّس مدى عناية القيادة العسكرية بتشكيل هذه الفرقة وإدراجها ضمن هيكله جيوش الحصار التي تُعدّها لخوض غمار حروبها الدفاعية والهجومية.

ولتوضيح أكثر لطبيعة الاشكالية الرئيسة لهذا البحث، والإفصاح عن مضمرات مشكلاته الفرعية، يحسن بنا إرفاقها بالتساؤلات الموالية:

- ما طبيعة هذه الفرقة العسكرية (الفعلة) يا ترى؟.
- وفيما يتجلى دور هذه الوحدة العسكرية ضمن وحدات جيش الحصار؟.
- وما مدى اهتمام القادة خلال الفترة المخصصة للدراسة بهذه الوحدات العسكرية المساعدة في حرب الحصار والمعينة على خوض معاركه؟.
- وما مدى فاعلية دورها في حرب الحصار؟.
- وهل ترتبط مهامها الحربية بشكل مباشر بحرب اقتحام الحصون واختراقها بشكل مباشر، أم يقتصر دورها على تذليل العقبات في مسار الطرق والمسالك المؤدية إلى ميادين الحصار ومواطن معاركها؟.
- وما أبرز معارك الحصار التي كان لهذه الفرق حضورا ضمن تشكيلة الجيوش سواء في حصار الهجوم أو في إطار حصار الدفاع التي شهدتها بلادنا إبّان العصر الوسيط؟.



2. الضبط المفاهيمي لمصطلح الفعلة:

2.1 الفعلة في الحقل المعجمي اللغوي:

من خلال مفاحصة المعجم اللغوي، تبدى لنا بأنّ الفعلة، مصطلح مشتق من لفظ "فعل". فقد جاء عند ابن منظور في دلالة "فعل"، أنّه: "كناية عن كل عمل متعلٍّ أو غير متعلٍّ"¹. وأضاف بأنّ الفعل بالفتح: من "مصدر فَعَلَ يَفْعَلُ"².

أمّا من الدلالات التي تتقاطع والمعنى الاصطلاحي للفعلة في ضوء ما أبان عنه المعجم اللغوي، فنلمسه فيما أورده كل من اللغوي الزبيدي وابن منظور بكون الفَعْلَةُ في لسان العرب تعني: "صفة غالبية على عَمَلَةِ الطين والحفر ونحوهما لأنّهم يفعلون. والنجار يقال له فاعل"³. ومن خلال هذه الدلالة التي أفصحت عن صفات هذا الصنف ومهامه الرئيسية؛ يتجلى لنا أنّ تسمية الفعلة تطلق على شريحة من أهل الحرف والصناعات البسيطة كعمليات الحفر، والتهيئة، والنجارة، وصناعة الأدوات الطينية والخشبية.

2.2 الدلالة الاصطلاحية: في المنحى الاصطلاحي لدلالة الفعلة؛ يمكن صياغة مفهوم يكون الفعلة على

ضوئه: هم أحد الأسلحة البشرية الهامة في معارك حرب الحصار، أو هم المهندسون والتقنيون الفاعلون في شتى مراحلها منذ أن تباشر الجيوش سيرها نحو الهدف، وإلى غاية تحقيق فعل الاقتحام والإخضاع، أو هم صمّام أمان نظام الحصار⁴، ومُذَلِّي العقبات في سبيل بلوغ أهدافه.

وتتعدّد مهامهم، وتباين، تبعاً لطبيعة اختصاص كل مجموعة من مجموعات هذه الفرقة. كما أنّها تعدّ من الفرق التي لا تغادر صفوف جيش الحصار التي تخرج إلى ميادين الحرب، نظراً لأهمية وظيفتها في هذا اللون من الحرب، ومحورية حضورها في تشكيلة تلك الجيوش.

3. هيكلة جيش الحصار ببلاد المغاربي خلال العصر الوسيط:

كان للجيش المغاربي خلال العصر الوسيط ديوان تتحدّد أبرز وظائفه في العناية بإعداد الجيوش، وتدريب الجند، وكذا الاشراف على خزائن حفظ السلاح؛ إذ بعد تخصيص القاعات والدور بالقصور والقلاع والمدن والحصون والثغور للاضطلاع بدور المخازن، يتمّ حشرها كذلك بالوان من الأسلحة، وتوكل مهمة حراستها إلى موظفين أكفاء يسهرون على سلامة السلاح وصيانتته بصفة دائمة ومنظمة. وتعدّ هذه الخزائن الرافد الرئيسي في عملية تسليح المقاتلين وإمدادهم بمختلف الأسلحة وآلات الحرب، كما كان الديوان يتولّى مسؤولية الصرف العام على الجيش والأسلحة والذخيرة والمؤن، وعلى كافة المراكز المحصنة كالقلاع والثغور حسب النظام السائد عصرئذ⁵.



وفي ظل هذا المرتكز، يتبادر إلى أذهاننا سؤال ذو صلة وطيدة بإشكالية البحث الرئيسة فحواه: ما طبيعة هيكله جيش الحصار؟ وما مدى حرص القيادة العسكرية على رص صفوف جيوشها بعناصر هذه الفرقة لتغذية أنشطتها الحربية، وتحقيق مطامحها السياسية التوسعية أو الدفاعية على كاهل حرب الحصار؟. وللوقوف على هيكله جيش الحصار، وتحديد أبرز مقوماته البشرية، نعتقد بأن الجدول الموالي، يمكن أن يفى بالغرض المنشود:

طبيعة الفرقة	مكوناتها	المصدر/المرجع
الفعلة	- فعلة البناء - فعلة الهدم - فعلة التهيئة	ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - قسم الموحدين-تح، محمد الكتاني، وآخرون، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1406هـ/1985م، ص186، الهرثي، مختصر سياسة الحروب، تح، عبد الرؤوف عون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر، 1964، ص29. المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2000، ص115، العروسي المطوي، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الاسلامي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1406هـ/1986م، ص38.
رجال الإطعام	- الطباخون - حراس الطعام - حراس العلوفة	القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1426هـ-2005م، ص199، ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح، ج. س. كولان وإ. ليقي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983، ص168، أبو محمد عبد الله بن محمد، رحلة التجاني، قدم لها، حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1981، ص 323، ابن خلدون عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب



والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج4، ضبطه، خليل شحادة، راجعه، سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1421هـ/2000م، ص49، المقرري، اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج1، تح، جمال الدين الشيال، ط2، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، 1416هـ-1996م، ص71، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تح، أبو الفداء عبد الله القاضي، مج6، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1407هـ/1987م، ص489. النويري، نهاية الإرب في فنون الأدب، ج28، تح، عبد المجيد ترحيني، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ/2004م، ص68.		
ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية في أخبار الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1972، ص387، ابن خلدون: العبر، ج7، ص293، تيتاو حميد، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الانسانية، الدار البيضاء، 2010، ص123، سمية مزدور، "المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588-927هـ/ 1192-1520م)"، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2008-2009، ص158-163.	- الأطباء - الممرضون - حملة المرضى	الفرق الطبية



حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج4، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1416هـ / 1996م، ص350، زغروت فتحي، الجيوش الاسلامية وحركة التغيير في دولتي المرابطين والموحدين (المغرب والأندلس)، دار التوزيع والنشر الاسلامية، القاهرة، مصر، 1426هـ / 2005م، ص163، الجبوري محمود عباد، أسلحة الحصار عند العرب حتى نهاية العصر العباسي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، 1435هـ / 2014م، ص94. روجي إدريس، الدولة الصنهاجية (تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م)، ج1، ترجمة، حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992، ص138، هيصام موسى، الجيش الجزائري في العهد الحمادي (405-547هـ / 1014-1152م)، منشورات مديرية الثقافة لولاية المدية، المدية، الجزائر، 2008، ص32.	- المنجنيقية - النفاطة - النشابة - الرماحة	الرماة
ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص246، ابن خلدون، العبر، ص210، ابن أبي دينار القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1386هـ / 1966م، ص81.	- نقل الأسلحة - نقل المؤن	النقالون
ابن عذاري: المصدر السابق، قسم الموحدين، ص326.	- النقالون - المؤمنون	الدبابون
زغروت، المرجع السابق، ص112، حسن ابراهيم حسن، المرجع السابق، ص350، هيصام، المرجع السابق، ص31.	- بواسطة اليد - بواسطة السلاالم	المتسلقون



الرجال الجياد	-فرسان الهجوم -تأمين الطعام -تأمين المعسكر	هيصام، المرجع السابق، ص31، زغروت، المرجع السابق، ص112، حسن ابراهيم حسن، المرجع السابق، ص350.
السيافة	-الرجالة -الفرسان	زغروت، المرجع السابق، ص112، هيصام، المرجع السابق، ص31.
الحراس	حراس المعسكر -حراس الأسوار -حراس مداخل المدن ودروبه	ابن عذاري: المصدر السابق، قسم الموحدين، ص196، الحلل الموشية، ص60، فياض، المرجع السابق، ص233.

التعليق:

- من خلال دراسة أحداث التاريخ العسكري لمنطقة الشمال الإفريقي خلال العصر الوسيط، وقفنا على أنّ فرقة الفعلة ما كانت تتخلف عن مرافقة جيوش الحصار في أغلب الحروب التي قادتها الكيانات السياسية التي تداولت على حكم البلاد على مدار الفترة المخصصة للدراسة.

- يتبدى لنا من خلال الجدول مدى أهمية كل مقوم من مقومات المؤسسة العسكرية لأداء المهام الحربية بشكل فاعل؛ فإنجاح الحرب، وبلوغ الأهداف العسكرية المسطورة من طرف القيادة السياسية، يتطلب من رجالها العناية الفائقة بكل مكونات الجيش، وفرقه العسكرية، وعدم إغفال أي مقوم من المقومات الفاعلة، ومن ذلك: فرقة "الفعلة".

- ما دام سلاح الحصار الفتاك لا يكون فتاكاً إلا إذا أحسنت قوات الحصار استخدامه وتفتنت في ذلك، فقد بات لزاماً على القيادة العسكرية إلى جانب تطوير أسلحة الحصار بما يخدم عملياتها العسكرية، تطوير قدرات مقاتليها ومهاراتهم بما يفوق إمكانات الخصم الدفاعية أو الهجومية كالمجنيقية والدبابين والفعلة، خصوصاً إذا كان الخصم يملك جيوشاً شديدة المراس وذات خبرة في حرب الحصار وأساليبه وفنون القتال فيه دفاعاً



وهجومًا ومنظومة تحصينية دفاعية متينة، والعناية الفائقة كذلك بالفرق المساعدة والداعمة لمهمة الجيش في حرب الحصار التي يخوضها ومن ذلك فرقة الفعلة.

ثمّ إنّه لا مناص من التأكيد تبعاً لهذا المعطى التاريخي، بأنّ هيكلة جيشنا في العصر الوسيط قد تمت على أسس نظامية تعتمد تقسيم قواته إلى وحدات كبرى وفرق ذات وسائل متعدّدة لتسهيل عملية إدارة المعارك الحربية، وتنفيذ المهام الدفاعية والهجومية في حرب الحصار، وكان على رأس كل فرقة من الفرق أمير من الأمراء العسكريين يتولى الإشراف عليها. وممّا يدلّ على أهمية هذه الفرق في جيوش الحصار أنّ الترقية للضباط كثيراً ما كانت تجري بإعطائهم مسؤولية إحدى تلك الفرق⁶. وهذا يعكس أهمية هذا النوع من الحرب ضمن نشاطاتهم العسكرية، ذلك أنّه يتطلّب قوات نظامية ذات كفاءات عالية ومهارات حربية كبيرة في فنون الحصار وتقنياته وطرائق استخدام أسلحته ومعداته.

خلاصة القول، فإنّه وبالرغم من أهمية فرقة "الفعلة" في حرب الحصار، ومحورية حضورها ضمن صفوف الجيوش العسكرية في ميادينها، يجدر التأكيد على أنّ أدوار فرق جيش الحصار متكاملة وأنّ بعضها يتمم وظيفة البعض الآخر؛ وبذلك فقد حرص القادة العسكريون الكبار خلال العصر الوسيط على اصطحاب فرقة الفعلة إلى جانب العناصر الأساسية في الحرب كالرماة، والحراة، والسيافة...، لشدّ عضد الآلات الحربية الثقيلة والخفيفة؛ ذلك أنّ هذه الوحدة العسكرية (الفعلة) تعدّ من الفرق الداعمة والمساعدة لقوات الحصار الأساسية إلى جانب أصحاب المهن والحرف من البنائين والنجارين والصناع والحدادين والخرازين والأساكفة واللبادين والسراجين والغرائين، ونحو ذلك من العناصر الضرورية لإنجاح الحرب، وبلوغ أهداف الحصار.

4. أدوار فرقة الفعلة ووظائفها الأساسية في معارك الحصار:

كشفتنا في المحطات البحثية السالفة مدى أهمية فرقة الفعلة المرافقة لجيوش الحصار في حروب القيادة العسكرية ببلادنا خلال العصر الوسيط، وتبعاً لذلك نضيف بأنّ أدوار هذه الفرقة الحربية متعدّدة، وأنّ الوظائف المنوطة بعناصرها تتباين تبعاً لاختصاص كل مجموعة منها، ومن بين ما اضطلعوا به من مهام ما نوردّه فيما يأتي تبعاً:

4.1 تهيئة المسالك:

في إطار ما يُنعت بعمليات الهندسة الميدانية للحرب، عمدت قيادات جيوش الحصار إلى تكليف مجموعة من عناصر جيشها بجملة من المهام من قبيل:

- إقامة الجسور:



نشير بداية إلى أنّ عناصر فرقة الفعلة كانوا مزودين بالأسلحة والأدوات التي تمكّنهم من أداء مهامهم، كأدوات الحفر والرمي والقطع على غرار الخناجر، والفؤوس، والمعاول، والمكاتل (المجارف)، والمناسف⁷. فضمن مهمة إقامة الجسور كان عناصر فرقة الفعلة يشرفون على جمع الأخشاب والأعمدة المناسبة للبناء، ثم يقومون بعقدتها فوق الموانع المائية، لتمكين فرق الجيش والعساكر من المرور بسلاسة، وتجاوز الأدوية بأمان، وكذا تذليل الصعاب أمام نقل الآلات والأدوات الحربية الثقيلة والخفيفة كالمجانيق، والعرادات، والأكباش، والدبابات.

- ردم الخنادق:

في الوقت الذي كانت القوات الدفاعية تحفر الخنادق لإعاقة جيوش الحصار التي تروم مهاجمتها والاعتداء على مجالها الجغرافي؛ لم تغفل القيادة العسكرية مسؤولية إلحاق جيوش الحصار بفرقة الفعلة؛ تكون من مهامها، ردم تلك الخنادق، وطّم مختلف الحفر والخنادق الطبيعية أو المحفورة⁸. وتسويتها بالأتربة، والأخشاب، وبكل ما يمكن أن يؤدي إلى الغرض الحربي المنشود.

كما أنّه وحين كانت الخنادق المحفورة حول المواضع المراد حصارها وبمحاذاة أسوار حصونها وقلاعها ومدنها تشكّل عائقا كبيرا يُصعب من مهمّة المحاصرين لبلوغ الهدف؛ ذلك أنّها تحول دون تقدّمهم نحوها بالقدر الذي يجعلها على مرمى قريب من معسكرهم لتغدو فريسة سهلة للاصطياد بواسطة آلات الرمي الفتاكة، فقد أوكلت القيادة العسكرية المشرفة على حرب حصار الهجوم مهمة التخلص من مشكلتها إلى عناصر فرقة الفعلة المتخصصة في ذلك. حيث يعملون على دفن تلك الخنادق وتسويتها بالحطب والتراب والأشجار والأوراق، وكلّ ما يؤدي الوظيفة من مواد الردم. أمّا إذا كانت الخنادق تسير فيها المياه؛ فكانت معالجة الموقف تقتضي أن يجعلوا عليها جسورا ومعابرا، وإن كان واسعاً بالقدر الذي لا يسعه الجسر فيستوجب استخدام السفن والزوارق ونحوها من المراكب الصغيرة التي تفي بغرض العبور. وهذا العمل -لا ريب- يقتضي الاكثار من عدد الفعلة ومن يستترهم من الرماة ويؤمّنهم⁹.

- شقّ الطرق عبر الدروب الجبلية والمسالك الصعبة وتسوية مسالكها:

تسهل فرقة الفعلة في مهامها الحربية إلى جانب ما ذكرنا، على مهمة شقّ الطرق عبر الدروب الجبلية والمسالك الصعبة وتسوية مسالكها وتطهيرها من مختلف الموانع التي تعيق عملية سير الجيوش كالثلوج، والأخشاب، والحجارة، ونحوها من المعيقات الطبيعية.

- إزالة الحواجز:



يضطلع عناصر فرقة الفعلة كذلك بمهمة إزالة كل الحواجز التي من شأنها أن تعيق مسيرة حركتها تلك التي أقامها الخصم لحماية مجاله الجغرافي وتأمين حدود دولته أو الإقليم الذي يشرف عليه، كالسيارات المنسوجة بالأخشاب، أو الزجاج المفروش عبر الطرق المؤدية إلى القلاع والحصون والمدن، أو المواد المضرة والمسمومة التي يفرشها الخصم لإعاقة عدوه، أو تطهير المجال والطرق من الفضلات والمواد القذرة التي تُرمى في الطرق والمسالك لنفس الغرض الحربي الدفاعي المذكور آنفاً¹⁰.

- نقل الأدوات والآلات الحربية إلى ميادين الحصار:

حيث يحملون ما يمكن حمله من أدوات الحرب الخفيفة، أمّا الثقيلة فيستعينون بوسائل النقل الحيوانية لنقلها إلى ميادين الحصار.

- مرافقة المشرفين على آلات الحصار الثقيلة:

لا يخفى علينا، بأنّ نقل أسلحة الحصار الثقيلة إلى ميادينه يتطلّب مسالك سهلة تساعد على مرونة حركة نقله في مدة زمنية قصيرة نظرا لما يمتاز به من ضخامة وصعوبة الحمل، لذلك كان الفعلة يرافقون الدبابة طيلة مراحل عملية الحصار منذ الانطلاق وإلى غاية إحداث فعل الاقتحام؛ وذلك -طبعاً- بمساعدة المجموعة المكلفة بقيادة الدبابة قبل أن تصل إلى السور لهدمه¹¹.

- نقيب الأسوار:

من بين المهام التي يقوم بها الفعلة، تلك التي اضطلعت بها إحدى تشكيلاتها المعروفة بالنقابة أو النقبابون، وتجلّت وظيفتها في إحداث ثغور في الحصون وهدمها بنقب أسوارها وأبوابها، وحفر السرايب من تحتها إليها بواسطة آلات النقب والحفر الحديدية المتنوعة، وبمساعدة آلات الحصار الضخمة كالدبابة. وتقوم بعض طرائق النقب على دفع الجنود للدبابة حتى يلصقونها بسور الحصن المحصور، فيعتمد النقبابون عندئذ إلى تثبيت دعائم خشبية في الأسوار حتى لا تنهار عليهم، وبعد أن يتمّ لهم ذلك، يقومون بدهن تلك الدعائم بالنفط، ثم يشعلون النار بها بعدما ينسحب الجنود من السور موضع النقب، فتعمل النيران الموقدة في الأخشاب على تفتيت الحجارة وانهيار أجزاء من السور، محدثة فجوات يتسلّل منها الجنود إلى داخل الحصن¹².

لا نشكّ في هذا المنحى، بأنّ نجاح الفعلة في مهمّتهم مرهون بمدى كفاءتهم ومهارتهم في عملية النقب في زمن وجيز، وكذا بمدى مهارة الجنود الرماة الذين يؤمّنون ظهورهم ويحمونها بسهامهم وقسيّهم من ضربات العدو الهجومية-الدفاعية لمنع فعل الاختراق، وهذا طبعاً، دون أن نهمل عامل الحصانة التي ينطوي عليها سور الحصن؛ إذ كلّما كان السور عاتياً ومنيعاً كلما كانت مهمة اختراقه صعبة وتستغرق وقتاً طويلاً، وكلما انطوى السور على عيوب كانت مهمة اختراقه أيسر وفي وقت أقلّ.



وان رمنا الحقيقة، فإنّ مهمة هدم السور على هذا المنوال، تنطوي على مخاطر جمة تحقيق بصفوف الفعلة، ذلك أنّ أيّ خطأ بسيط في مسيرة عملية النقب تكون نتيجته الحتمية قتل الفعلة والجنود المرابطين بمحاذاة السور، ومن تلك الأخطاء على سبيل المثال: سوء تثبيت الأخشاب في السور فإذا انهار هذا الأخير قبل إخلاء الجنود أو الفعلة السبيل فتك بهم، أو أن تتمكن سهام العدو ونيران حديد المصهور أو المذاب من اختراق سقف الدبابة فتصيبهم وتحرقهم، أو سوء تثبيت الدبابة بسور الحصن فتتهار بالفعلة على الجنود، ونحو ذلك من الأخطاء.

- مهمة البناء والترميم:

إذا كان من مهام الفعلة نقب الأسوار وهدمها، فإن مهمة البناء هي الأخرى من المهام المنوطة بهم أيضا، لذلك فهم عمدة البناء في حرب حصار الدفاع وأساس عملية النقب والهدم في حرب حصار الهجوم. ونستند فيما نقول إلى نصّ ابن عذاري، الذي يذكر أنّ الفعلة كان لهم نشاط فاعل في بناء عدة أسوار في المدن المغاربية، وكذا في عملية تزويد التحصينات القائمة بسلسلة من أعمال التحصين كترميم الأسوار وتجديدها، وبناء أسوار أخرى جديدة كلّما كانت الحاجة إليها واستدعت الضرورة الحربية¹³.

- تركيب المناجيق والدبابات والأكباش في ساحات الحصار:

يضاف إلى ما تمّ بسطه من مهام الفعلة، أنّهم يقومون في ساحة المعركة أيضا بتركيب المنجنيق والدبابات وغيرها من آلات الحصار الضخمة، وذلك بعد أن يقوموا بجمع الأخشاب الصالحة لصناعاته وتكديسها في مواضع البناء، وكذا تهيئة الموضع الأنسب لتركيب المنجنيق ونصبه، وجمع الذخيرة الخاصة بالرمي من حجارة وإعدادها لتكون في حجم القذيفة المناسبة وقدرة رمي ذلك السلاح، ونصب الخيام وجمع أوتادها¹⁴.

5. عينات من حضور فرقة الفعلة في حروب الحصار خلال العصر الوسيط:

إذا رمنا الوقوف على عينات من مشاهد ذلك الصنيع عن كثب، فإنّ المادة المصدريّة تطالعنا بنماذج ميدانية لنشاط هؤلاء الفعلة في حضارات المغاربة، ممّا يجعلنا نشدّ أزرنا بها للاستدلال على ما نسوقه من خبرها؛ ففي الحملة العسكرية التي قادتها جيوش الموحيدين إلى حصار المهديّة سنة 554هـ/1159م، يجود ابن عذاري علينا برواية مؤدّاها: أنّ الفعلة كانوا ضمن الفرقة المُشكّلة لتلك الجيوش¹⁵. كما ألحق فرقتها خليفة الموحيدين أبو يوسف المنصور بجيشه حين سيّر حملته لحصار قفصة سنة 582هـ/1186م بعدما ضيق الميارقة (بنو غانية) على بلاد الجريد¹⁶ أشدّ التضيق، حيث لم يخرج المنصور إلّا بعدما أتمّ كافة الاستعدادات من تجنيد الأجناد وحشد الآلات والسلاح وشدّ البلاد بالولاة والحراس، كما أرسل الكتب والمراسلات إلى أصحاب الأعمال من الولاة تحمل الأوامر بتبليغ سائر العمال الذين بالمنازل وأمّهات الطرقات بإصلاح الطرق وتهيئة



المسالك والممرات وتوطئة السبل وإزالة العوائق، وتوسيع المضائق، وردم الحفير والخنادق ونصب الجسور في أماكنها لتسهيل العبور، وإعداد الأقوات، وتيسير المرافق وتوفير العلوفات، وشدد الخليفة على ولّاته من عاقبة أمر التهاون أو التفريط فيما انتهى إليهم من الأوامر، وزاد بأن لا عذر لهم فيما بين أيديهم من الموجودات لدعم الجيوش وتيسير السبل لحسم داء الخروج والفتنة على سلطان الموحدين¹⁷.

ونظير هذا الحرص من القائمين على الطرق والمسالك لتهيئتها على أحسن حال، كانت جيوش الموحدين وهي تشقّ طريقها إلى المغرب الأدنى (تونس حاليا)، فقد أبدع ابن عذاري في رسم حالها وراق له أن يعبر عنه- وكأنّها تمشي في أحسن المساكن وتنتقل من ترف ومتاع إلى ترف ومتاع أفضل منه، بل حتى أنّها لقيت من رغد المعيشة ما لم تعهده ولا تقدر عليه في أماكنها ومساكنها¹⁸. ولما وصلت جيوش الموحدين إلى تونس، كانت لهم وقعة مع خصومهم من بني غانية في ربيع الآخر من عام ثلاث وثمانين وخمسمائة انجلت لغير صالحهم، فشمر المنصور على إثر هذه الكسرة لقتال أعدائه، وخرج على رأس جيش عرمرم للنواحي والأرجاء، فنازل خصومه في قابس والقيروان وظفر بالنصر عليهما، ثم سار إلى قفصة وحاصرها في شعبان من السنة المذكورة آنفا حتى دخلها¹⁹.

بيد أنّ مهمة دخول مدينة قفصة وفتحها لم تكن بالأمر السهل ولا كان الطريق إليها معبداً، وإنّما توجت الجهود بالنجاح بعدما ردم الفعلة الحفير المحيط بأسوارها بحيث ساووا الحفير إلى مستوى وجه الأرض وصار وضعه لا يمنع من مسير الفارس ولا الراجل ولا الخارج ولا الداخل، وبعدها أتموا أيضا عملية تهيئة المسلك وتيسير الطريق إلى سور المدينة، لأنّ عناصر الجيش لما حاولت تستنم السور والصعود على الردم الذي أحدثته الفعلة استعصى عليهم ذلك، لكون المسلك المؤدي إليه صعب المرتقى بسبب ما تراكم في صدره من ردم الأسوار والذخائر والقذائف التي رمتها المنجنيق من جميع الأحجار ومواد الرمي، فزلّت بها الأقدام، بل ومما زاد الطين بلة، هو كثرة الوحل الذي صعب الاقتحام، لذلك وبفضل جهود الفعلة تيسر الطريق لإحداث فعل الاقتحام، ولما رأى المحصورون أنّ البلد مكسوح لا محال، طال الأمر أو قصر، اجتمعوا وتشاوروا ثم بادروا لطلب الأمان من المنصور، فمنحهم ما طلبوا على شروط، واستعاد المدينة²⁰. ثمّ إنّ ما كان يعني بعدما أدرك المنصور غايته أنّ عناصر فرقة الفعلة قد باتت في حلّ من أمر مهامها، وإنّما ما إن أوشك على المسير من قفصة إلى تونس حتى أوعز إلى عناصرها بأن يضرّموا النار في جميع المنجنيق والآلات²¹، حتى لا تثقل كاهلهم في طريق الرجعة، وحتى لا تترك في متناول الأعداء فتكون معينا لهم عليهم في حصار قفصة أو غيرها إذا ما أخذت الفتنة أو التمرّد إلى نفوسهم طريقا في فترات لاحقة. وهو ما يُفضي للقول، أنّ مهام الفعلة لا تقتصر على ما يُنات بها قبل الحصار وأثنائه، وإنّما تستمرّ حتى إلى ما بعد تحقيق فعل الاقتحام.



في حصار السلطان المريني المنصور بالله أبي الحسن علي ابن عثمان لمدينة سجلماسة سنة 732هـ/ 1332م، حيث يذكر ابن خلدون أنّ هذا السلطان لمّا أخذ بمخنق المدينة "حشد الفعلة والصناع لعمل الآلات لحصارها، والبناء بساحتها. و أقام يغادها القتال ويراوحها"²²، مدة سنة كاملة حتى اقتحم البلد عنوة تاسع عشر محرم سنة أربع وثلاثين وسبعمائة"²³. كما اصطحب ابنه أبي عنان المتمرد عليه في حصاره لمدينة فاس الجديد سنة 749هـ/ 1348م الفعلة مع الآلات الضخمة لحصارها والأخذ بمخنقها، حتى أمكنه اقتحامها ودخولها²⁴، أو في حصاره لمدينة مراكش في السنة الموالية مدة أشهر حتى هلك السلطان المريني أبو الحسن. وجمع السلطان الزياني أبو حمو في حصاره لبجاية الفعلة على الآلات في الحصار، لكن اجتماع جيوش السلطان الحفصي أبي العباس كسرت عسكره²⁵.

وحتى لا نقع في فخ الاقصاء، نشير بأنّ ما أوردناه من نماذج كان من باب المثال لا الحصر، فقد كان لفرقة الفعلة حضور دائم في شتى معارك الحصار التي خاضها جيشنا في الفترة مدار البحث، إذ لا تخرج جيوشها لحصار الخصوم إلا وتكون فرقتها ردف فرقه، يصطحبون آلات تسوية الطريق لردم الحفائر وإزالة العوارض من بناء ونحوه كما فصلنا فيه آنفا²⁶.

4. خاتمة:

نستشف ممّا سبق، أنّ مهام فرقة الفعلة قد طبعها نوع من التشعب والتداخل، الأمر الذي صعب علينا مهمة تحديدها بدقة تبعا لتشكيلاتها، كما لمسنا حاجة جيوش الحصار الماسّة للفعلة في مسيرة الحصار في شتى مراحلها. ومع ذلك، ينبغي التنويه إلى الفقر المدقع الذي طبع التأريخ لهذا الصنف من الأسلحة البشرية الخاصة بالحصار، ممّا حال دون ملامسة دقيقة لطبيعة المهام المنوطة بها والوقوف على حقائق مستفيضة من تفاصيلها، وهو ما يفتح أمامنا باب التساؤل بشأنها وتبقى الاجابة عنها حبيسة الدليل التاريخي، ومن ذلك: هل كانت عناصرها تخضع للتدريب أم اقتصر الأمر على الاختيار العشوائي؟ وفيما تتجلى المعايير التي يتمّ على أساسها تحديد أقدر الأصناف البشرية على الاضطلاع بمهامها؟ وهل يخضع تشعب المهام لعامل التخصص أم يصطبغ بصبغة العشوائية؟.



الهوامش

- ¹- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين (ت 711هـ/1312م)، لسان العرب المحيط، ج 38، تح، عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص 3438.
- ²- المصدر نفسه، ج 38، ص 3438.
- ³- ويذكر الزبيدي أنّ الفعلة في زمانه خُصَّ بمن يعمل الطين ويحفر الأساس. راجع: الزبيدي محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، ج 30، تحقيق عبد الكريم العزباوي، مطبعة الكويت، الكويت، 1392هـ/1972م، ص 184، ابن منظور، ج 38، ص 3438.
- ⁴- تقابل فرقة الفعلة في الوقت الحالي، صنف الهندسة الذين يقومون بالجهود الهندسية في معارك الحروب.
- ⁵- الجبوري: المرجع السابق، ص 43، معروف، المرجع السابق، ص 68، وانظر كذلك الملحق رقم: 01، ص 503.
- ⁶- الجبوري: المرجع السابق، ص 120، معروف، المرجع السابق، ص 92.
- ⁷- المناسف: آلات لقلع البناء بالنقب تحته، انظر: ابن عذاري، المصدر السابق، قسم الموحدين، ص 186، المنوني، المرجع السابق، ص 115.
- ⁸- الجبوري: المرجع السابق، ص 163.
- ⁹- الهرثي: مختصر سياسة الحروب، تح، عبد الرؤوف عون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر، 1964، ص 29.
- ¹⁰- المصدر نفسه، ص 29.
- ¹¹- المصدر نفسه، ص 29.
- ¹²- ابن منكلي، الحيل في الحروب، ص 402-408.
- ¹³- ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ص 20.
- ¹⁴- الهرثي: المصدر السابق، ص 58.
- ¹⁵- ابن عذاري: المصدر السابق، قسم الموحدين، ص 62. ويذكر الذهبي أنّه خرج في جيش قوامه مائة ألف فارس ومعهم من الصنائع والسوق والأتباع أضعاف مضاعفة، شمس الدين الذهبي، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج 38، تح، عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1415هـ/1995م، ص 27.
- ¹⁶- هي منطقة في الجنوب التونسي، كانت تشمل مدن: توزر وقفصة ونفطة والحامة وما وراء هذه البلاد، وسميت بذلك لكثرة النخيل بها.
- ¹⁷- ابن عذاري: المصدر السابق، قسم الموحدين، ص 186، محمد العروسي المطوي: السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الاسلامي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1406هـ/1986م، ص 38.
- ¹⁸- ابن عذاري، المصدر السابق، قسم الموحدين، ص 186، المطوي: المرجع السابق، ص 38-40.
- ¹⁹- وكانت للمنصور مع بني غانية عدّة وقائع منها: "عمرة" و "يوم الحمة"، انظر: ابن عذاري، المصدر السابق، قسم الموحدين، ص 188-194.
- ²⁰- المصدر نفسه، ص 194-195.
- ²¹- ابن عذاري، المصدر السابق، قسم الموحدين، ص 196، المطوي، المرجع السابق، ص 38-40.
- ²²- ابن خلدون، العبر، ج 7، ص 336.



²³- بشأن أسباب الحصار، انظر: الناصري، المرجع السابق، ج3، ص120.

²⁴- حيث استغلّ أبو عنان انشغال أبيه أبي الحسن بحرب العرب الهلالية التي ظفرت بعدة انتصارات عليه وحاصرته في القيروان وتونس بعدما كانت هي المحصورة بها على يديه في سنة 749هـ وظل تحت الحصار مدة عام ونصف، وعمد إلى الانقلاب على أبيه والسعي للاستئثار بسلطان بني مرين بالمغرب بمعونة عثمان بن يحيى المنتسب إلى علم الحدثان والذي بثّ في أذنيه الأراجيف، انظر: ابن خلدون، العبر، ج7، ص370، أبو عبد الله محمد الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تج، محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، 1966، ص84.

²⁵- ابن خلدون، العبر، ج6، ص362، 551.

²⁶- بشأن الجيش المريني، انظر: المنوني، المرجع السابق، ص115.

